قلنا: المراد بالقلب هنا العقل، كذا قاله ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما. قال ابن قتيبة: لما كان القلب موضع العقل كنى به عنه.

الثاني: أن المراد لمن كان له قلب واع؛ لأن مَن لا يعي قلبه فكأنه لا قلب له، ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ**﴾ [الأعراف: ١٧٩] الآية.

سورة الذاريات

في قوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ**﴾ [الذاريات: ٥].

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿**إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ**﴾، والصادق وصف القائل لا وصف الوعد؟

قلنا: قيل: صادق بمعنى مصدوق كـ﴿**عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ**﴾، و﴿**مَاءٍ دَافِقٍ**﴾، وقيل: معناه لصادق، فإن المصدر قد جاء على وزن اسم الفاعل؛ كقولهم: قمت قائمًا، وقولهم: لحقت بهم اللائمة، أي: اللوم.

وفي قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ**﴾ [الذاريات: ١٥].

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿**إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ**﴾، والمتقون لا يكونون في الجنة في العيون؟

قلنا: معناه أنهم في الجنات والعيون الكثيرة محدقة بهم من كل ناحية وهم في مجموعة لا في كل عين، ونظيره قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ**﴾ [القمر: ٥٤]؛ لأنه بمعنى أنهار، إلا أنه عدل عنها رعاية للفواصل.

وفي قوله تعالى: ﴿**وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الأَلِيمَ**﴾ [الذاريات: ٣٧].

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿**وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الأَلِيمَ**﴾ أي: في قرى قوم لوط، وقرى قوم لوط ليست موجودة، فكيف توجد فيها العلامة؟

قلنا: الضمير في قوله: «فيها» عائد إلى تلك الناحية والبقعة لا إلى مدائن قوم لوط.

الثاني: أنه عائد إليها، ولكن «في» بمعنى «من» كما في قوله تعالى: ﴿**وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا**﴾ [النحل: ٨٩]، وقوله تعالى: ﴿**وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا**﴾، ويؤيد هذا الوجه مجيئه مصرحًا به في سورة «العنكبوت» بلفظ «من» في قوله تعالى: ﴿**تَّرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ**﴾ [العنكبوت:٣٥]، ثم قيل: الآية آثار منازلهم الخربة. وقيل: هي الحجارة التي أبقاها الله تعالى، حتى أدركها أوائل هذه الأمة. وقيل: هي الماء الأسود الذي يخرج من الأرض.

وفي قوله تعالى: ﴿**وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ**﴾ [الذاريات: ٤٩].

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿**وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ**﴾ أي: صنفين، مع أن العرش والكرسي والقلم واللوح لم يخلق منها إلا واحد؟

قلنا: قيل: معناه: ومن كل حيوان خلقنا ذكرًا وأنثى، وقيل: معناه: ومن كل شيء تشاهدونه خلقنا صنفين كالليل والنهار، والصيف والشتاء، والنور والظلمة، والخير والشر، والحياة والموت، والبحر والبر والسماء والأرض، والشمس والقمر، ونحو ذلك.

وفي قوله تعالى: ﴿**فَفِرُّوا إِلَى اللهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ**﴾ [الذاريات: ٥٠].

فإن قيل: كيف قال تعالى هنا: ﴿**فَفِرُّوا إِلَى اللهِ**﴾، وقال سبحانه في موضع آخر ﴿**وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ**﴾ [آل عمران: ٢٨]؟

قلنا: معنى قوله: ﴿**فَفِرُّوا إِلَى اللهِ**﴾ أي: الجئوا إليه بالتوبة. وقيل: معناه: ففروا من عقوبته إلى رحمته، ومعنى قوله: ﴿**وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ**﴾ أي: يخوفكم ويحذركم الله إياه، كما قال ﷻ: ﴿**يُرِيدُونَ وَجْهَهُ**﴾ أي: إياه، فظهر أنه لا تناقض بين الآيتين.

وفي قوله تعالى: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ**﴾ [الذاريات: ٥٧].

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ**﴾، وإذا قلنا: خلقهم للعبادة كان مريدا لها منهم فكيف أرادها منهم ولم توجد منهم؟

قلنا: فيه وجوه:

أحدها: أنه عام أريد به الخاص وهم المؤمنون؛ بدليل خروج البعض منه بقوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ﴾ [الأعراف: ١٧٩]، ومَن خلق لجهنم لا يكون مخلوقًا للعبادة.

الثاني: أنه على عمومه، والمراد بالعبادة التوحيد، وقد وحده الكل يوم أخذ الميثاق، وهذا الجواب يختص بالإنس؛ لأن أخذ الميثاق مخصوص بهم بالآية. وقيل: معناه: إلا ليكونوا عبيدا لي. وقيل: معناه: إلا ليذلوا ويخضعوا وينقادوا لما قضيته وقدرته عليهم فلا يخرج عنه أحد منهم. وقيل: معناه إلا ليعبدون إن اختاروا العبادة لا قسر أو إلجاء. وقيل: إلا ليعبدون العبادة المرادة في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [الرعد: ١٥]، والعموم ثابت في الوجوه الخمسة.

وفي قوله تعالى: ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾ [الذاريات: ٥٧].

فإن قيل: ما فائدة قوله تعالى: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾ بعد قوله: ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ﴾؟

قلنا: معناه ما أريد منهم من رزق لأنفسهم، وما أريد أن يطعمون، أي: أن يطعموا عبيدي، وإنما أضاف الإطعام إلى ذاته المقدسة؛ لأن الخلق عياله وعبيده، ومَن أطعم عيال غيره فكأنه أطعمه، ويؤيده ما جاء في الحديث الصحيح: «**إنَّ الله ﷻ يقول يوم القيامة: يا ابن آدم استطعمتك فلم تطعمني**» أي: استطعمك عبدي فلم تطعمه.

سورة الطور

في قوله تعالى: ﴿وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ [الطور: ٢٠].

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ مع أن الحور العين في الجنة مملوكات ملك يمين لا ملك نكاح؟

قلنا: معناه قرناهم بهن من قولهم: زوجت إبلي: أي قرنت بعضها إلى بعض، وليس من التزويج الذي هو عقد النكاح، ويؤيده أن ذلك لا يعدى بالباء، بل بنفسه كما قال تعالى: ﴿زَوَّجْنَاكَهَا﴾، ويقال: زوجه امرأة، ولا يقال: بامرأة.

وفي قوله تعالى: ﴿كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور: ٢١].

فإن قيل: كيف قال الله تعالى في وصف أهل الجنة: ﴿كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ أي: مرهون في النار بعمله؟

قلنا: قال الزمخشري: كأن نفس كل عبد ترهن عند الله تعالى بالعمل الصالح الذي هو مطالب به، كما يرهن الرجل عبده بدين عليه، فإن عمل صالحًا فكها وخلصها وإلا أوبقها. وقال غيره: هذه جملة من صفات أهل النار وقعت معترضة في صفات أهل الجنة، ويؤيده ما روي عن مقاتل أنه قال معناه: كل امرئ كافر بما عمل من الكفر مرتهن في النار، والمؤمن لا يكون مرتهنا لقوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ۝ إِلاَّ أَصْحَابَ الْيَمِينِ ۝ فِي جَنَّاتٍ﴾ [المدثر: ٣٨].

وفي قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلاَ مَجْنُونٍ﴾ [الطور: ٢٩].

فإن قيل: كيف قال تعالى في حق النبي ﷺ: ﴿فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلاَ مَجْنُونٍ﴾ وكل واحد غيره كذلك لا يكون كاهنًا ولا مجنونًا بنعمة الله تعالى؟

قلنا: معناه: فما أنت بحمد الله وإنعامه عليك بالصدق والنبوة بكاهن ولا مجنون كما يقول الكفار. وقيل: الباء هنا بمعنى «مع» كما في قوله تعالى: ﴿تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ﴾، وقوله تعالى: ﴿فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ﴾، ويقال: أكلت الخبز بالتمر، أي: معه.

فإن قيل: ما معنى الجمع في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨]؟

قلنا: معناه التفخيم والتعظيم، والمراد بحيث نراك ونحفظك، ونظيره في معنى العين قوله تعالى: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾، ونظيره في الجمع للتفخيم والتعظيم قوله تعالى: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾، وقوله تعالى: ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا﴾.

***

سورة النجم

في قوله تعالى: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى﴾ [النجم: ٢].

فإن قيل: الضلال والغواية واحدة، فما فائدة قوله تعالى: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى﴾؟

قلنا: قيل: إن بينهما فرقًا؛ لأن الضلال ضد الهدى والغي ضد الرشد، وهما مختلفتان مع تقاربهما. وقيل: معناه: ما ضل في قوله ولا غوى في فعله، ولو ثبت اتحاد معناهما يكون من باب التأكيد باللفظ المخالف مع اتحاد المعنى.

وفي قوله تعالى: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ [النجم: ٩].

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ أدخل كلمة الشك، والشك محال على الله تعالى؟

قلنا: «أو» هنا للتخيير لا للشك، كأنه قال ﷻ: إن شئتم قدروا ذلك القرب بقاب قوسين، وإن شئتم قدروه بأدنى منهما. وقيل: معناه: بل أدنى. وقيل: هو خطاب لهم بما هو معهود بينهم. وقيل: هو تشكيك لهم لئلا يعلموا قدر ذلك القرب، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ [الصافات: ١٤٧]، والكلام فيهما واحد.

وفي قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّى * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى﴾ [النجم: ١٩-٢٠].

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّى﴾ من رؤية القلب لا من رؤية البصر، فأين مفعولها الثاني؟

قلنا: هو محذوف تقديره: أفرأيتموها بنات الله وأنداده، فإنهم كانوا يزعمون أن الملائكة وهذه الأصنام بنات الله ﷻ.

وفي قوله تعالى: ﴿وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى﴾ [النجم: ٢٠].

فإن قيل: كيف قال الله تعالى: ﴿**الثَّالِثَةَ الأُخْرَى**﴾، فوصف الثالثة بالأخرى، والعرب إنما تصف بالأخرى الثانية لا الثالثة، فظاهر اللفظ يقتضي أن يكون قد سبق ثالثة أولى، ثم لحقها الثالثة الأخرى فتكون ثالثتان؟

قلنا: الأخرى نعت للعزى تقديره: أفرأيتم اللات والعزى الأخرى ومناة الثالثة؛ لأنها ثالثة الصنمين في الذكر، وإنما أخر الأخرى رعايةً للفواصل كما قال: ﴿**وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى**﴾ [طه: ١٤٧]، ولم يقل: «آخر» رعاية للفواصل.

وفي قوله تعالى: ﴿**وَإِنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا**﴾ [النجم: ٢٨].

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿**وَإِنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا**﴾ أي: لا يقوم مقام العلم في صورة القياس؟

قلنا: المراد به هنا الظن الحاصل من اتباع الهوى دون الظن الحاصل من النظر والاستدلال، ويؤيده قوله تعالى قبل هذا: ﴿**إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنْفُسُ**﴾ [النجم: ٢٣].

وفي قوله تعالى: ﴿**وَأَن لَّيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى**﴾ [النجم: ٣٩].

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿**وَأَن لَّيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى**﴾، وقد صح في الأخبار وصول ثواب الصدقة والقراءة والحج وغيرها إلى الميت؟

قلنا: فيه وجوه:

أحدها: ما قاله ابن عباس -رضي الله عنهما- أنها منسوخة بقوله تعالى: ﴿**وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ**﴾ [الطور: ٢١]، معناه: أنه أدخل الأبناء الجنة بصلاح الآباء، قالوا: وهذا لا يصح؛ لأن الآيتين خبر ولا نسخ في الخبر.

الثاني: أن ذلك مخصوص بقوم إبراهيم وموسى -عليهم الصلاة والسلام، وهو حكاية ما في صحفهم، فأما هذه الأمة فلا ما سعت وما سعى لها.

الثالث: أنه على ظاهره، ولكن دعاء ولده وصديقه وقراءتها وصدقتها عنه من سعيه أيضًا بواسطة اكتسابه للقرابة أو الصداقة أو المحبة من الناس بسبب التقوى والعمل الصالح.

وفي قوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى﴾ [النجم: ٥٥].

فإن قيل: كيف قال تعالى بعد تعديد النقم: ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى﴾، والآلاء النعم؟

قلنا: إنما قال سبحانه بعد تعديد النعم والنقم نعم لما فيها من الزجر والمواعظ، فمعناه: فبأي نعم ربك الدالة على وحدانيته تشك يا وليد بن المغيرة.

سورة القمر

في قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا﴾ [القمر: ٩].

فإن قيل: ما فائدة إعادة التكذيب في قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا﴾، وهلا قال تعالى: كذبت قبلهم قوم نوح عبدنا؟

قلنا: معناه كذبوا تكذيبًا بعد تكذيب، وقيل: إن التكذيب الأول منهم بالتوحيد، والثاني بالرسالة. وقيل: التكذيب الأول منهم لله تعالى، والثاني لرسوله ﷺ.

وفي قوله تعالى: ﴿فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ [القمر: ١٢].

فإن قيل: كيف قال الله تعالى في وصف ماء الأرض والسماء: ﴿فَالْتَقَى الْمَاءُ﴾، ولم يقل: فالتقى الماءان؟

قلنا: أراد به جنس المياه.

وفي قوله تعالى: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَنْ كَانَ كُفِرَ﴾ [القمر: ١٤].

فإن قيل: الجزاء إنما يكون للكافر ولا المكفور، فكيف قال تعالى: ﴿جَزَاءً لِّمَنْ كَانَ كُفِرَ﴾.

قلنا: جزاء مفعول له، فمعناه ففتحنا أبواب السماء وما بعده مما كان يسبب إغراقهم جزاء لله تعالى؛ لأنه مكفور به، فحذف الجار وأوصل الفعل بنفسه؛ كقوله تعالى:

﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ﴾ [الأعراف: ١٥٥]، والجزاء يضاف إلى الفاعل وإلى المفعول كسائر المصادر.

الثاني: أنه نوح عليه السلام إما لأنه مكفور به، بحذف الجار كما مر من الكفر الذي هو ضد الإيمان، أو لأن كل نبي نعمة من الله على قومه، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وقال رجل للرشيد: الحمد لله عليك، فقال: ما معنى هذا؟ فقال: أنت نعمة حمدت الله عليها؛ فكأنه قال: جزاء لهذه النعمة المكفورة، وكفران النعمة يتعدى بنفسه قال الله تعالى: ﴿وَلاَ تَكْفُرُونِ﴾.

الثالث: أن «من» بمعنى «ما»، فمعناه: جزاء لما كان كفر من نعم الله تعالى على العموم، وقرأ قتادة ﴿كفر﴾ بالفتح، أي: جزاء الكافرين.

وفي قوله تعالى: ﴿تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ [القمر: ٢٠].

فإن قيل: كيف قال الله تعالى: ﴿أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ منقلع، ولم يقل: منقعرة؟

قلنا: إنما ذكر الصفة؛ لأن الموصوف وهو النخل مذكر اللفظ ليس فيه علامة تأنيث، فاعتبر اللفظ، وفي موضع آخر اعتبر المعنى، وهو كونه جمعًا فقال: ﴿أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾، ونظيرهما قوله تعالى: ﴿لآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ۞ فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ۞ فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ﴾ [الواقعة: ٥٤]، وقال أبو عبيدة: النخل يذكر ويؤنث، فجمع القرآن اللغتين. وقيل: إنما ذكر رعاية للفواصل.

***

سورة الرحمن ﷻ

في قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٧].

فإن قيل: أي مناسبة بين رفع السماء ووضع الميزان حتى قرن بينهما؟

قلنا: لم صدَّر هذه السورة بتعديد نعمه سبحانه على عبيده، ذكر من جملتها وضع الميزان الذي به نظام العالم وقوامه لاسيما أن المراد بالميزان العدل في قول الأكثرين، والقرآن في قول، وكل ما نعرب به المقادير في قول كالمكيال والميزان المعروف ونحوها.

وفي قوله تعالى: ﴿أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ﴾ [الرحمن: ٨].

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ﴾ أي: لا تجاوزوا فيه معدل مغنٍ عما بعده من الجملتين، فما فائدتهما؟

قلنا: المراد بالطغيان فيه أخذ الزائد، وبالإخسار فيه إعطاء الناقص وأمر بالتوسط الذي هو إقامة الوزن بالقسط، ونهى عن الطرفين المذمومين.

وفي قوله تعالى: ﴿خَلَقَ الإِنْسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ﴾ [الرحمن: ١٤].

فإن قيل: كيف قال تعالى هنا: ﴿خَلَقَ الإِنْسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ﴾، وهو الطين اليابس الذي لم يطبخ لكن له صلصلة: أي صوت إذا نقر، وقال تعالى في موضع آخر: ﴿مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿مِّن طِينٍ لاَّزِبٍ﴾ [الصافات:١١]، وقال تعالى: ﴿مِّن تُرَابٍ﴾.

قلنا: الآيات كلها متفقة في المعنى؛ لأنه تعالى خلقه من تراب ثم جعله طيناً ثم مسنوناً ثم صلصالاً.

وفي قوله تعالى: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾ [الرحمن: ١٧].

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾، فكرر ذكر الرب ولم يكرره في سورة «المعارج»، بل أفرده فقال تعالى: ﴿فَلاَ أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ﴾

[المعارج: ٤٠]، وكذا في سورة «المزمل»: ﴿فَلاَ أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ﴾، ﴿لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً﴾؟

قلنا: إنما ذكر الرب تأكيدًا، فكان التأكيد بهذا الموضع أليق منه بذينك الموضعين؛ لأنه موضع الامتنان وتعديد النعم، ولأن الخطاب فيه مع جنسين وهما الإنس والجن.

وفي قوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن: ٢٦].

فإن قيل: بعض الجمل المذكورة في هذه السورة ليست من النعم؛ كقوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾، وقوله تعالى: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلاَ تَنتَصِرَانِ﴾ [الرحمن: ٣٥]؛ فكيف حسن الامتنان بعدها بقوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾؟

قلنا: من جملة الآلاء دفع البلاء وتأخير العقاب، فإبقاء من هو مخلوق للفناء نعمة، وتأخير العقاب عن العصاة أيضًا نعمة؛ فلهذا امتن علينا بذلك.

وفي قوله تعالى: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلاَنِ﴾ [الرحمن: ٣١].

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلاَنِ﴾، والله تعالى لا يشغله شيء؟

قلنا: قال الزجاج: الفراغ في اللغة على ضربين: أحدهما الفراغ من شغل، والآخر القصد للشيء والإقبال عليه؛ وهو تهديد ووعيد، ومنه قولهم: سأتفرغ لفلان: أي سأجعله قصدي، فمعنى الآية سنقصد لعقابكم وعذابكم وحسابكم.

وفي قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦].

فإن قيل: كيف وعد سبحانه الخائف جنتين فقط؟

قلنا: لأن الخطاب للثقلين، فكأنه قيل لكل خائفين من الثقلين جنتان، جنة للخائف الإنسي، وجنة للخائف الجني. وقيل: المراد به أن لكل خائف جنتين: جنة لفعل الطاعات، وجنة لترك المعاصي. وقيل: جنة يثاب بها، وجنة يتفضل بها عليه زيادة؛ لقوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦] أي: الجنة وزيادة .

وفي قوله تعالى: ﴿فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلاَ جَانٌّ﴾ [الرحمن:٥٦].

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ﴾، ولم يقل سبحانه فيهما، والضمير للجنتين؟

قلنا: الضمير لمجموع الآلاء المعدودة من الجنتين والعينين والفاكهة وغيرهما مما سبق ذكره. وقيل: هو للجنتين، وإنما جمعه لاشتمال الجنتين على قصور ومنازل. وقيل: الضمير للمنازل والقصور التي دل عليها ذكر الجنتين. وقيل: الضمير لمجموع الجنان التي دل عليها ذكر الجنتين، وقيل: الضمير عائد إلى الفرش؛ لأنها أقرب، وعلى هذا القول «في» بمعنى «على»، كما في قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ﴾ [الطور: ٣٨].

فإن قيل: كيف قال الله تعالى: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلاَ جَانٌّ﴾ أي: لم يفتضهن، ونساء الدنيا لا يفتضهن الجان، فما فائدة تخصيص الحور بذلك؟

قلنا: معناه أن تلك القاصرات الطرف إنسيات للإنس وجنيات للجن، فلم يطمث الإنسيات إنسي، ولا الجنيات جني، وهذه الآية دليل على أن الجن يواقعون كما يواقع الإنس. وقيل: فيها دليل على أن الجني يغشى الإنسية في الدنيا.

سورة الواقعة

في قوله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾ [الواقعة: ١٠].

فإن قيل: ما فائدة التكرار في قوله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾؟

قلنا: فيه وجهان:

أحدهما: أنه تأكيد مقابل لما سبقه من التأكيد في ﴿فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ۞ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾ [الواقعة: ٨-٩]؛ كأنه قال تعالى: والسابقون هم المعروف حالهم المشهور وصفهم، ونظيره قول أبي النجم:

أنا أبو النجم وشعري شعري[1]

(١) ديوان أبي النجم العجلي من قصيدة من بيتين هذا البيت مطلعها.

الثاني: أن معناه: والسابقون إلى طاعة الله هم السابقون إلى جنته وكرامته، ثم قيل: المراد بهم السابقون إلى الإيمان من كل أمة. وقيل: الذين صلوا إلى القبلتين. وقيل: أهل القرآن. وقيل: السابقون إلى المساجد إلى الخروج في سبيل الله. وقيل: هم الأنبياء - صلوات الله عليهم؛ فهذه خمسة أقوال.

وفي قوله تعالى: ﴿**يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ**﴾ [الواقعة: ١٧].

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿**يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ**﴾ مع أن التخليد ليس صفة مخصوصة بالولدان في الجنة، بل كل أهل الجنة مخلدون فيها لا يشيبون لا يهرمون، بل يبقى كل واحد أبدًا على صفته التي دخل الجنة عليها؟

قلنا: معناه أنهم لا يتحولون عن شكل الولدان وهي الوصافة. وقيل: مقرطون. وقيل: مسورون، ولا إشكال على هذين القولين.

وفي قوله تعالى: ﴿**لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ**﴾ [الواقعة: ٥٢].

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿**لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ۞ فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ**﴾ أنث ضمير الشجر ثم ذكره؟

قلنا: قد سبق جوابه في سورة «القمر».

وفي قوله تعالى: ﴿**نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلاَ تُصَدِّقُونَ**﴾ [الواقعة: ٥٧].

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿**نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلاَ تُصَدِّقُونَ**﴾ أي: فهلا تصدقون، مع أنهم مصدقون أنه خلقهم بدليل قوله تعالى: ﴿**وَلَئِنْ سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ**﴾ [الزخرف: ٨٧]؟

قلنا: هم وإن كانوا مصدقين بألسنتهم إلا أنهم لما كان مذهبهم على خلاف ما يقتضيه التصديق فكأنهم مكذبون به.

الثاني: أنه تخصيص على التصديق بالبعث بعد الموت بالاستدلال بالخلق الأول، فكأنه قال تعالى: هو الذي خلقكم أولاً باعترافكم، فلا يمتنع عليه أن يعيدكم ثانيًا، فهلا تصدقون بذلك؟

وفي قوله تعالى: ﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾ [الواقعة: ٦٥].

فإن قيل: كيف قال تعالى في الزرع: ﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾ باللام، وقال تعالى في الماء: ﴿لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا﴾ [الواقعة: ٧٠] بغير لام؟

قلنا: الأصل أن تذكر اللام في الموضعين؛ إذ لا بدَّ منها في جواب «لو» إلا أنها حذفت في الثاني اختصارًا، وهي مؤدية للدلالة الأولى عليها.

الثاني: أن أصل هذه اللام للتأكيد، فذكرت مع المطعوم دون المشروب؛ لأن المطعوم مقدم وجودًا ورتبةً؛ لأنه إنما يحتاج إلى الماء تبعًا له، ولهذا قدمت آية المطعوم على آية المشروب، فلما كان الوعيد يفقد المطعوم أشد وأصعب أكد تلك الجملة مبالغة في التهديد.

وفي قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: ٧٤].

فإن قيل: التسبيح التنزيه عن السوء، فما معنى باسم في قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾، وهلا قال تعالى: فسبح ربك العظيم؟

قلنا: فيه وجوه:

أحدها: أن الباء زائدة، والاسم بمعنى الذات فصار المعنى ما قلتم.

الثاني: أن الاسم بمعنى الذكر، فمعناه فسبح بذكر ربك.

الثالث: أن الذكر فيه مضمر، فمعناه فأحدث التسبيح بذكر اسم ربك.

الرابع: قال الضحاك: معناه فصل باسم ربك: أي افتتح الصلاة بالتكبير.

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾ [الواقعة: ٧٧].

فإن قيل: إذا كان القرآن صفة من صفات الله تعالى قديمة قائمة بذاته المقدسة؛ فكيف قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ۞ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ﴾ أي: اللوح المحفوظ أو المصحف على اختلاف القولين؟

قلنا: معناه مكتوب في كتاب مكنون، ولا يلزم من كتابة القرآن في الكتاب أن يكون القرآن حالاً في الكتاب كما في كتب إنسان على كفه ألف دينار لا يلزم منه وجود ألف دينار في كفه، وكذا لو كتب في كفه العرش أو الكرسي، وكذا وكذا، قال تعالى في صفة النبي

ﷺ: ﴿يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

الثاني: أن القرآن لو كان حالاً في المصحف؛ فإما أن يكون جميعه حالاً في مصحف واحد، أو في كل مصحف، أو في بعضه، ولا سبيل إلى الأول؛ لأن المصاحف كلها سواء في الحكم في كتابته فيها، ولأن هذا المصحف ليس أولى بذلك من البعض، ولا سبيل إلى الثاني وإلا يلزم تعدد القرآن وأنه متحد، ولا سبيل إلى الثالث؛ لأنه كله مكتوب في كل مصحف، ولأن هذا المصحف ليس أولى بهذا البعض من ذلك المصحف، وكذا الباقي، فثبت أنه ليس حالاً في شيء منها، بل هو كلام الله تعالى وكلامه صفة قديمة قائمة به لا تفارقه.

فإن قيل: فإذا لم تفارقه؛ فكيف سماه تعالى منزلاً وتنزيلاً، وقال سبحانه: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ﴾ [الشعراء: ١٩٣]، ونظائره كثير، وإذا فارقه وباينه يكون مخلوقًا؛ لأن كل مباين له فهو غيره، وكل ما هو غيره فهو مخلوق؟

قلنا: معنى إنزاله أنه ﷻ علمه لجبريل فحفظه، وأمره أن يعلمه للنبي ﷺ، ويأمره أن يعلمه لأمته، مع أنه لم يزل ولا يزال صفة الله قائمة به لا تفارقه.

سورة الحديد

في قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لاَ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ﴾ [الحديد: ٨].

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لاَ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ﴾، ثم قال سبحانه: ﴿إِن كُنْتُم مُّؤْمِنِينَ﴾؟

قلنا: معناه إن كنتم مؤمنين بموسى وعيسى -عليهما الصلاة والسلام؛ فإن شريعتهما تقتضي الإيمان بمحمد ﷺ.

الثاني: إن كنتم مؤمنين بالميثاق الذي أخذه عليكم يوم أخرجكم من ظهر آدم عليه السلام.

الثالث: أن معناه: أي عذر لكم في ترك الإيمان والرسول يدعوكم إليه ويتلو عليكم

الكتاب الناطق بالبراهين والحجج، وقد ركب الله تعالى فيكم العقول ونصب لكم الأدلة ومكنكم من النظر وأزاح عللكم، فما لكم لا تؤمنون إن كنتم مؤمنين بموجب ما تقولون، فإن هذا الواجب لا مزيد عليه.

وفي قوله تعالى: ﴿لاَ يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ﴾ [الحديد: ١٠].

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿لاَ يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ﴾، ولم يذكر مع من لا يستوي، والاستواء لا يتم إلا بذكر اثنين كقوله تعالى: ﴿قُل لاَّ يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ﴾ [المائدة: ١٠٠]، ﴿لاَ يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ [الحشر: ٢٠]؟

قلنا: هو محذوف تقديره: ومن أنفق وقاتل من بعد الفتح، إنما حذف لدلالة ما بعده عليه.

وفي قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ﴾ [الحديد: ١٩].

فإن قيل: كيف يقال: إن أعلى الدرجات بعد درجة الأنبياء درجة الصديقين، والله تعالى قد حكم لكل مؤمن بكونه صديقًا بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ﴾؟

قلنا: قال ابن مسعود ومجاهد: كل مؤمن صديق.

الثاني: أن الصديق هو كثير الصدق، وهو الذي كل أقواله وأفعاله وأحواله صدق، فعلى هذا يكون المراد به بعض المؤمنين لا كلهم. وقد روي عن الضحاك أنها نزلت في ثمانية نفر سبقوا أهل الأرض في زمانهم إلى الإسلام، وهم أبو بكر وعثمان وعلي وحمزة بن عبد المطلب وطلحة والزبير وسعد وزيد، وألحق بهم عمر ﷺ؛ فصاروا تسعة.

فإن قيل: كيف ذكر سبحانه هؤلاء المذكورين بكونهم شهداء ومنهم من لم يقتل؟

قلنا: معناه أن لهم أجر الشهداء.

الثاني: أنه جمع شهيد بمعنى شاهد، فمعناه أنهم شاهدوه عند ربهم على أنفسهم بالإيمان.

الثالث: أنه مبتدأ منقطع عما قبله لا معطوف عليه، والشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم.

وفي قوله تعالى: ﴿**سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ**﴾ [الحديد: ٢١].

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿**سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ**﴾، والمسابقة من المفاعلة التي لا تكون إلا بين اثنين؛ كقولك: سابق زيد عمرًا؟

قلنا: قيل: معناه سارعوا مسارعة المسابقين لأقرانهم في الميدان، ويؤيد هذا القول مجيئه بلفظ المسارعة في سورة «آل عمران». وقيل: سابقوا ملك سابقوا إبليس قبل أن يصدكم بغروره وخداعه عن ذلك.

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿**وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ**﴾، وقال تعالى: في سورة «آل عمران»: ﴿**وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ**﴾ [آل عمران: ١٣٣]، فكيف يكون عرضها كعرض السماء الواحدة وكعرض السموات السبع؟

قلنا: المراد بالسماء جنس السموات لا سماء واحدة؛ كما أن المراد بالأرض في الآيتين جنس الأرضين، فصار التشبيه في الآيتين بعرض السموات السبع والأرضين السبع.

وفي قوله تعالى: ﴿**لِكَيْلاَ تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ**﴾ [الحديد: ٢٣] .

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿**لِكَيْلاَ تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ**﴾، ولا أحد يملك نفسه عند مضرة تناله ألا يحزن، ولا عند منفعة تناله ألا يفرح؛ وليرجع كل واحد منا في ذلك إلى نفسه؟

قلنا: ليس المراد بذلك الحزن والفرح الذي لا ينفك عن الإنسان بطبعه قسرًا وقهرًا، بل المراد به الحزن المخرج لصاحبه إلى الذهول عن الصبر والتسليم لأمر الله تعالى ورجاء ثواب الصابرين، والفرح المطغي الملهي عن الشكر، نعوذ بالله منهما.

وفي قوله تعالى: ﴿**لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ**﴾

[الحديد:٢٥].

فإن قيل كيف قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ﴾، والميزان ينزل من السماء؟

قلنا: قيل: المراد بالميزان هنا العدل. وقيل: العقل. وقيل: السلسلة التي أنزلها الله تعالى على داود عليه السلام. وقيل: هو الميزان المعروف أنزله جبريل، فدفعه إلى نوح عليه السلام وقال له: مر قومك يزنوا به.

وفي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ﴾ [الحديد: ٢٨].

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ﴾ مع أن المؤمنين مؤمنون برسوله ﷺ؟

قلنا: معناه: يا أيها الذين آمنوا بموسى وعيسى -عليهما السلام- آمنوا بمحمد ﷺ، فيكون خطابًا لليهود والنصارى خاصة، وعليه الأكثرون، وقيل: معناه: يا أيها الذين آمنوا يوم الميثاق اتقوا الله وآمنوا برسوله اليوم. وقيل: معناه: يا أيها الذين آمنوا بالله في العلانية باللسان، اتقوا الله وآمنوا برسوله في السر بتصديق القلب.

سورة المجادلة

في قوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلاَثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلاَ خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ﴾ [المجادلة: ٧].

فإن قيل: لأي معنى خص الله تعالى الثلاثة والخمسة بالذكر في النجوى دون غيرهما من الأعداد في قوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلاَثَةٍ﴾ الآية؟

قلنا: لأن قومًا من المنافقين تخلفوا للتناجي على هذين العددين مغايظة للمؤمنين، فنزلت الآية على صفة حالهم تعريضًا بهم وتسميعًا لهم، وزيد فيها ما يتناول كل متناجين غير تلك الطائفتين، وهو قوله تعالى: ﴿وَلاَ أَدْنَى مِن ذَلِكَ وَلاَ أَكْثَرَ﴾.

وفي قوله تعالى: ﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [المجادلة: ١٤].

فإن قيل: ما فائدة قوله تعالى: ﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾؟

قلنا: فائدته الإخبار عن المنافقين أنهم يحلفون على أنهم ما سبوا رسول الله ﷺ وأصحابه مع اليهود متعمدين للكذب، فهي اليمن الغموس، فكان ذلك نهاية في بيان ذمهم.

سورة الحشر

في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [الحشر: ٩].

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ﴾، والإيمان ليس مكانًا يتبوأ؛ لأن معنى التبوء اتخاذ المكان منزلاً؟

قلنا: فيه إضمار تقديره: وأخلصوا الإيمان؛ كقول الشاعر:

علفتها تبنًا وماءً باردًا[1]

أي: وسقيتها ماءً باردًا.

الثاني: أنه على ظاهره بغير إضمار، ولكنه مجاز، فمعناه أنهم جعلوا الإيمان مستقرًا وموطنًا لتمكنهم منه واستقامتهم عليه، كما جعلوا دار الهجرة كذلك وهي المدينة.

وفي قوله تعالى: ﴿وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الأَدْبَارَ ثُمَّ لاَ يُنْصَرُونَ﴾ [الحشر: ١٢].

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ﴾ بعد الإخبار بأنهم لا ينصرونهم، وحرف الشرط إنما يدخل على ما يحتمل وجوده وعدمه.

قلنا: معناه: ولئن نصروهم على الفرض، والتقدير كقوله تعالى للنبي ﷺ: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥]، وقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢]، والله تعالى كما يعلم ما يكون قبل كونه، فهو يعلم ما لا يكون أن لو كان كيف يكون.

---

(١) ديوان ذي الرمة من قصيدة من بيت واحد هذا البيت مطلعها.

وفي قوله تعالى: ﴿لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللهِ﴾ [الحشر: ١٣].

فإن قيل: ما معنى قوله تعالى للمؤمنين: ﴿لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللهِ﴾ أي: في صدور المنافقين أو اليهود على اختلاف القولين، وظاهره لأنتم أشد خوفًا من الله، فإن كان «من» متعلقًا بـ«أشد» لزم ثبوت الخوف لله تعالى، كما تقول: زيد أشد خوفًا في الدار من عمرو، وذلك محال، وإن كان «من الله» متعلقًا بالخوف؛ فأين الذي فصل عليه المخاطبون، وأيضًا فإن الآية تقتضي إثبات زيادة الخوف للمؤمنين، وليس المراد ذلك باتفاق المفسرين؟

قلنا: رهبة مصدر رهب مبنيًا لما لم يسم فاعله، فكأنه قيل: أشد مرهوبية، يعني أنكم في صدورهم أهيب من الله فيها، كذا فسَّره ابن عباس -رضي الله عنهما، ونظيره قولك: زيد أشد ضربًا في مدار من عمرو، يعني مضروبية.

فإن قيل: كيف يستقيم التفضيل بأشدية الرهبة مع أنهم كانوا لا يرهبون الله؛ لأنهم لو رهبوه لتركوا النفاق والكفر؟

قلنا: معناه أن رهبتهم في السر منكم أشد من رهبتهم من الله التي يظهرونها لكم، وكانوا يظهرونها لكم، وكانوا يظهرون للمؤمنين رهبة شديدة من الله تعالى.

وفي قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [الحشر: ١٦].

فإن قيل: كيف قال إبليس: ﴿إِنِّي أَخَافُ اللهَ﴾، وهو لا يخاف الله تعالى؛ لأنه لو خافه لما خلقه، ثم أضل عبيده؟

قلنا: قد سبق هذا السؤال وجوابه في سورة «الأنفال».

وفي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾

[الحشر:١٦].

فإن قيل: ما فائدة تنكير النفس والغد في قوله تعالى: ﴿وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾؟

قلنا: أما تنكير النفس فلاستقلال الأنفس النواظر فيما قدمت للآخرة؛ كأنه قال: ولتنظر نفس واحدة في ذلك، وأين تلك النفس. وأما تنكير الغد، فلعظمته وإبهام أمره

قال لغد لا يعرف كنهه لعظمه.

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿لِغَدٍ﴾، وأراد به يوم القيامة، والغد عبارة عن يوم بينه وبيننا ليلة واحدة؟

قلنا: الغد له مفهومان:

أحدهما: ما ذكرتم. **والثاني**: مطلق الزمان المستقبل، ومنه قول الشاعر:

وَأَعلَمُ ما في اليَوم وَالأَمسِ قَبلَهُ وَلَكِنَّني عَن عِلم ما في غَدٍ عَمي(١)

وأراد به مطلق الزمان المستقبل، كما أراد بالأمس مطلق الزمان الماضي، فصار لكل واحد منهما مفهومان، ويؤيده أيضًا قوله تعالى: ﴿**كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ**﴾ [يونس: ٢٤]، وقيل: إنما أطلق على يوم القيامة اسم الغد تقريبًا له؛ كقوله تعالى: ﴿**اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ**﴾ وقوله تعالى: ﴿**وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلاَّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ**﴾، وكأنه تعالى قال: إن يوم القيامة لقربه يشبه ما ليس بينكم وبينه إلا ليلة واحدة، ولهذا روي عن النبي ﷺ أنه قال: «**اعمل لليلة صبيحتها يوم القيامة**»، قالوا: أراد بتلك الليلة ليلة الموت.

وفي قوله تعالى: ﴿**لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا**﴾ [الحشر: ٢١].

فإن قيل: ما معنى قوله تعالى: ﴿**لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا**﴾؟

قيل: معناه: أنه سبحانه لو جعل في جبل على قساوته تمييزًا، كما جعل في الإنسان ثم أنزل عليه القرآن، لتشقق خشية من الله تعالى وخوفًا ألا يؤدي حقه في تعظيم القرآن، والمقصود توبيخ الإنسان على قسوة قلبه وقلة خشوعه عند تلاوة القرآن، وإعراضه عن تدبر قوارعه وزواجره.

وفي قوله تعالى: ﴿**هُوَ اللهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى**﴾ [الحشر: ٢٤].

فإن قيل: ما الفرق بين الخالق والبارئ حتى عطف تعالى أحدهما على الآخر؟

قلنا: الخلق هو المقدر لما يوجده، والبارئ هو المميز بعضه عن بعض بالأشكال المختلفة. وقيل: الخالق المبدئ والبارئ المعيد.

---

(١) ديوان زهير بن أبي سلمي البيت رقم ٤٩ من قصيدته وهو في الديوان: «**وَأَعلَمُ عِلمَ اليَومِ وَالأَمسِ قَبلَهُ...**».

سورة الممتحنة

في قوله تعالى: ﴿إِلاَّ قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ [الممتحنة: ٤].

فإن قيل: من ماذا استثنى قوله تعالى: ﴿إِلاَّ قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ﴾ ؟

قلنا: من قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ﴾؛ لأنه سبحانه أراد بالأسوة الحسنة قوله الذي حكاه عنه وعن أتباعه وأشياعه؛ ليقتدوا به ويتخذوه سنة يستنون بها، واستثنى سبحانه استغفاره لأبيه؛ لأنه كان عن موعدة وعدها إياه.

فإن قيل: فإن كان استغفاره لأبيه أو وعده لأبيه بالاستغفار مستثنى من الأسوة، فكيف عطف عليه قوله: ﴿وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللهِ مِن شَيْءٍ﴾، وهو لا يصح استثناؤه، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللهِ شَيْئًا﴾.

قلنا: المقصود بالاستثناء هو الجملة الأولى فقط وما بعدها ذكر؛ لأنه من تمام كلام إبراهيم -صلوات الله عليه- لا بقصد الاستثناء، كأنه قال: أنا أستغفر لك وما في طاقتي إلا الاستغفار.

وفي قوله تعالى: ﴿وَلاَ يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللهَ﴾ [الممتحنة: ١٢].

فإن قيل: ما فائدة قوله تعالى: ﴿وَلاَ يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾، ومعلوم أن النبي ﷺ لا يأمر إلا بمعروف، فهلا اقتصر على قوله تعالى: ﴿وَلاَ يَعْصِينَكَ﴾؟

قلنا: فائدته سرعة تبادر الأفهام إلى قبح المعصية منهن أو وقعت من غير توقف الفهم على المقدمة التي أوردتم في السؤال.

***

سورة الصف

في قوله تعالى: ﴿وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ﴾ [الصف: ٥].

فإن قيل: ما فائدة «قد» في قوله تعالى: ﴿وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ﴾؟

قلنا: فائدتها التأكيد، كأنه قال: وتعلمون علمًا يقينًا لا شبهة لكم فيه، هذا جواب الزمخشري. وقال غيره: فائدتها التكثير؛ لأن «قد» مع الفعل المضارع تارة تأتي للتقليل كقولهم: إن الكذوب قد يصدق، وتارة تأتي للتكثير كقول الشاعر:

قَد أَعسِفُ النازِحَ المَجهولَ مَعسِفَهُ ... في ظِلِّ أَخضر يَدعو هامَهُ البومُ[1]

وإنما يتمدح بما يكثر وجوده منه لا بما يقل.

وفي قوله تعالى: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦].

فإن قيل: كيف قال عيسى عليه السلام: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾، ولم يقل: محمد، ومحمد أشهر أسماء النبي ﷺ؟

قلنا: إنما قال أحمد؛ لأنه مذكور في الإنجيل بعبارة تفسيرها أحمد لا محمد، وإنما كان كذلك لأن اسمه في السماء أحمد وفي الأرض محمد، فنزل في الإنجيل اسمه السماوي. وقيل: إن أحمد أبلغ في معنى الحمد من محمد من جهة كونه مبنيًا على صيغة التفضيل. وقيل: محمد أبلغ من جهة كونه على صيغة التفضيل الذي هو للتكثير.

وفي قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [الصف: ٦].

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾، ولم يقل سبحانه هذه، والمشار إليه البينات وهي مؤنثة.

قلنا: معناه هذا الذي جئت به، فالإشارة إلى المأتي به.

فإن قيل: ما وجه صحة التشبيه وظاهره تشبيه كونهم أنصار الله بقول عيسى عليه السلام:

---

(١) ديوان ذي الرمة من قصيدة من ٨٥ بيتًا مطلعها: «أَعَن تَرَسَّمتَ مِن خَرقاءَ مَنزِلَةً...».

﴿مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللهِ﴾؟

قلنا: التشبيه محمول على المعنى، تقديره: كونوا أنصار الله كما كان الحواريون أنصارًا لعيسى عليه السلام حين قال لهم: ﴿مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللهِ﴾.

سورة الجمعة

في قوله تعالى: ﴿فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾ [الجمعة: ٩].

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللهِ﴾، والسعي العدو، والعدو إلى صلاة الجمعة وإلى كل صلاة مكروه؟

قلنا: المراد بالسعي القصد. وقال الحسن: ليس هو السعي على الأقدام، ولكنه على النيات والقلوب، ويؤيد قول الحسن قوله تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى﴾ [النجم: ٣٩]، وقول الداعي في دعاء القنوت: وإليك نسعى ونحفد، وليس المراد به العدو والإسراع بالقدم.

وفي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا﴾ [الجمعة: ١١].

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿انْفَضُّوا إِلَيْهَا﴾، والمذكور شيئان اللهو والتجارة؟

قلنا: قد سبق جواب هذا في سورة «التوبة» في قوله تعالى: ﴿وَلاَ يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللهِ﴾، والذي يؤيده هنا ما قاله الزجاج معناه: وإذا رأوا تجارة أنفضوا إليها أو لهوًا انفضوا إليها، فحذف أحدهما لدلالة المذكور عليه، وقرأ ابن مسعود رضي الله عنه إليهما بضمير التثنية، وعليه فلا حذف.

***

سورة المنافقون

في قوله تعالى: ﴿وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ﴾ [المنافقون: ١].

فإن قيل: ما فائدة قوله تعالى: ﴿وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ﴾؟

قلنا: لو قال تعالى: قالوا نشهد إنك لرسول الله، والله يشهد إنهم لكاذبون، لكان يوهم أو قولهم هذا كذب، وليس المراد أن شهادتهم هذه كذب؛ بل المراد أنهم كاذبون في غير هذه الشهادة. وقال أكثر المفسرين: إنه تكذيب لهم في هذه الشهادة؛ لأنهم أضمروا خلاف ما أظهروا، ولم يعتقدوا أنه رسول الله بقلوبهم، فسماهم كاذبين لذلك، فعلى هذا يكون ذلك تأكيد.

وفي قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ [المنافقون: ٣].

فإن قيل: المنافقون ما برحوا على الكفر، فكيف قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا﴾.

قلنا: معناه ذلك الكذب الذي حكم عليهم به، أو ذلك الإخبار عنهم بأنهم ساء ما كانوا يعملوا بسبب أنهم آمنوا بألسنتهم، ﴿ثُمَّ كَفَرُوا﴾ بقلوبهم، ﴿فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ كما قال تعالى في وصفهم: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ﴾ [البقرة:١٤] الآية.

الثاني: أن المراد به أهل الردة منهم.

وفي قوله تعالى: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ﴾ [المنافقون: ٤].

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ﴾، ولم يقل: هي العدو؟ قلنا: عليهم هو ثاني مفعولي يحسبون تقديره: يحسبون كل صيحة واقعة عليهم: أي لجبنهم وهلعهم، فالوقف على قوله تعالى عليهم، وقوله سبحانه: ﴿هُمُ الْعَدُوُّ﴾ ابتداء كلام. وقيل: إن المفعول الثاني هو قوله تعالى: ﴿هُمُ الْعَدُوُّ﴾، ولكن تقديره: يحسبون أهل كل صيحة عليهم هم العدو، والأول أظهر بدليل عدم نصب العدو.

سورة التغابن

في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُم مُّؤْمِنٌ﴾ [التغابن: ٢].

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُم مُّؤْمِنٌ﴾ قدَّم الكافر في الذكر؟

قلنا: «الواو» لا تعطي رتبة ولا تقتضي ترتيبًا، كما قال تعالى: ﴿لاَ يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾، وقال تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾، وقال سبحانه: ﴿يَهَبُ لِمَن يَّشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَّشَاءُ الذُّكُورَ﴾ [الشورى: ٤٩]، وقد ذكرنا في الآية الأخيرة معنى آخر في موضعها.

وفي قوله تعالى: ﴿فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللهُ﴾ [التغابن: ٦].

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللهُ﴾ يوهم وجود التولي والاستغناء معًا بعد مجيء رسلهم إليهم، والله تعالى لم يزل غنيًا؟

قلنا: معناه وظهر استغناء الله تعالى عن إيمانهم وعبادتهم؛ حيث لم يلجئهم إلى الإيمان، ولم يضطرهم إليه مع قدرته تعالى على ذلك.

وفي قوله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنْ بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ [التغابن: ١١].

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنْ بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ مع أن الهداية سابقة على الإيمان؛ لأنه لولا سبق الهداية لما وجد الإيمان؟

قلنا: ليس المراد يهد قلبه للإيمان، بل المراد به يهد قلبه لليقين عند نزول المصائب، فيعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه.

الثاني: يهد قلبه للرضا والتسليم عند نزول المصائب.

الثالث: يهد قلبه للاسترجاع عند نزول المصائب، وهو أن يقول: ﴿إِنَّا للهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾.

الرابع: يهد قلبه: أي يجعله ممن إذا ابتلى صبر، وإذا أنعم عليه شكر، وإذا ظلم غفر.

الخامس: يهد قلبه لاتباع السنة إذا صح إيمانه، وقرئ (يهدأ) بفتح الدال وبالهمز من الهدوء وهو السكون، فمعناه: ومن يؤمن بالله إيمانًا خالصًا يسكن قلبه ويطمئن عند نزول المصائب والمحن ولا يجزع ويقلق.

سورة الطلاق

في قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ**﴾ [الطلاق: ١].

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ**﴾ أفرد الخطاب أولاً ثم جمعه ثانيًا؟

قلنا: أفرد سبحانه النبي ﷺ أولاً بالخطاب؛ لأنه إمام أمته وقدوتهم إظهارًا لتقدمه ورياسته، وأنه وحده في حكم كلهم وساد مسد جميعهم.

الثاني: أن معناه: يا أيها النبي، قُلْ لأمتك إذا طلقتم النساء.

وفي قوله تعالى: ﴿**وَمَن يَتَّقِ اللهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ**﴾ [الطلاق: ٢-٣].

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿**وَمَن يَتَّقِ اللهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ**﴾، ونحن نرى كثيرًا من الأتقياء مضيقًا عليهم رزقهم؟

قلنا: معناه يجعل له مخلصًا من هموم الدنيا والآخرة، وعن النبي ﷺ أنه قال: «**مخرجًا من شبهات الدنيا ومن غمرات الموت ومن شدائد يوم القيامة**». وقال ابن عباس -رضي الله عنهما: ينجيه من كل كرب في الدنيا والآخرة. والصحيح أن هذه الآية عامة، وأن الله يجعل لكل متقٍ مخرجًا من كل ما يضيق على من لا يتقي، ولهذا قال النبي ﷺ: «**إني لأعلم آية لو أخذ الناس بها لكفتهم ﴿وَمَن يَتَّقِ اللهَ﴾، وجعل يقرؤها ويعيدوها**»[1].

وأما تضييق رزق الأتقياء فهو مع ضيقه وقلته يأتيهم من حيث لا يأملون ولا يرجون، وتقليله لطف بهم ورحمة ليتوفر حظهم في الآخرة، ويخف حسابهم، ولتقل

(١) تفسير القرطبي، (١٨/ ١٦)، ومسند إسحاق بن راهويه، (٣/ ٦٥٧).

عوائقهم عن الاشتغال بمولاهم، ولا يشغلهم الرخاء والسعة عما خلقوا له من الطاعة والعبادة، ولهذا اختار الأنبياء والأولياء والصديقون الفقر على الغنى.

وفي قوله تعالى: ﴿وَمَن يَّتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣].

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿وَمَن يَّتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ أي: مَن يتق فيما نابه كفاه الله شر ما أهمه. وقد رأينا كثيرًا من الناس يتوكل على الله في بعض أمورهم وحوائجهم ولا يكفيهم الله تعالى همها؟

قلنا: محال أنه يتوكل على الله حق التوكل ولا يكفيه همه، وبل ربما قلق وضجر واستبطأ قضاء حاجته بقلبه أو بلسانه أيضًا ففسد توكله، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ بَالِغُ أَمْرِهِ﴾ أي: نافذ حكمه، يبلغ ما يريده ولا يفوته مراد ولا يعجزه مطلوب، وبقوله تعالى: ﴿قَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ أي: جعل لكل شيء من الفقر والغنى والمرض والصحة والشدة والرخاء ونحو ذلك أجلاً ومنتهى ينتهي إليه لا يتقدم عنه ولا يتأخر.

وفي قوله تعالى: ﴿وَاللاَّئِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلاَثَةُ أَشْهُرٍ وَاللاَّئِي لَمْ يَحِضْنَ﴾ [الطلاق: ٤].

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿وَاللاَّئِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلاَثَةُ أَشْهُرٍ وَاللاَّئِي لَمْ يَحِضْنَ﴾ علقه بشكنا مع عدتهن ذلك سواء وجد شكنا أم لا؟

قلنا: المراد بالشك الجهل بمقدار عدة الآيسة والصغيرة، وإنما علقه به؛ لأنه لما نزل بيان عدة ذوات الأقراء في سورة «البقرة» قال بعض الصحابة ﷺ: قد بقي الكبار والصغار لا ندري كم عدتهن، فنزلت هذه الآية على هذا السبب، فذلك جاءت مقيدة بالشك والجهل.

وفي قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنَّ أُوْلاَتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ [الطلاق:٤].

فإن قيل: إذا كانت المطلقة طلاقًا بائنًا تجب لها النفقة عند بعض العلماء، فما فائدته قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنَّ أُوْلاَتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ﴾ عند ذلك القائل؟

قلنا: فائدته ألا يتوهم أنه إذا طالت مدة الحمل بعد الطلاق حتى مضت مدة عدة الحائل سقطت النفقة، فنفى هذا الوهم بقوله: ﴿حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾.

وفي قوله تعالى: ﴿سَيَجْعَلُ اللهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٧].

فإن قيل: كيف قال هنا: ﴿سَيَجْعَلُ اللهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾، وقال تعالى في موضع آخر: ﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾؛ فكيف التوفيق بينهما؟

قلنا: المراد بقوله تعالى: «مع» بعده؛ لأن الضدين لا يجتمعان.

وفي قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُّكْرًا﴾ [الطلاق: ٨].

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُّكْرًا﴾، فنسب العتو إليها، وقال تعالى: ﴿فَحَاسَبْنَاهَا – وَعَذَّبْنَاهَا﴾ بلفظ الماضي مع أن الحساب والعذاب المرتبين على العتو إنما هما في الآخرة لا في الدنيا؟

قلنا: معناه عتا أهلها، وإنما جئ به على لفظ الماضي تحقيقًا له و تقريراً؛ لأن المنتظر من وعد الله تعالى ووعيده آتٍ لا محالة، وما هو كائن فكأنه قد حصل، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ﴾ وما أشبه.

سورة التحريم

في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللهَ هُوَ مَوْلاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [التحريم: ٤].

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ إن كان المراد به الفرد فأي فرد هو، وأيضًا فإنه لا يناسب مقابلة الملائكة الذين هم جمع، وإن كان المراد به الجمع؛ فهلا كان مكتوبًا في المصحف بـ«الواو»؟

قلنا: هو فرد أريد به الجمع كقولك: لا يفعل هذا الفعل الصالح من الناس، تريد به الجنس كقولك: لا يفعله من صلح منهم، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾

[المعارج: ١٩]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ [العصر: ٢]، وقوله تعالى: ﴿وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا﴾ [الحاقة: ١٧]، وقوله: ﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً﴾، ونظائره كثيرة.

الثاني: أنه يجوز أن يكون جمعًا، ولكنه كتب في المصحف بغير «واو» على اللفظ، كما جاءت ألفاظ كثيرة في المصحف على اللفظ دون اصطلاح الخط.

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿وَالْمَلاَئِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾، ولم يقل: ظهراه وهو خبر عن الجمع وهم الملائكة؟

قلنا: هو فرد وضع موضع الجمع كما سبق.

الثاني: اسم على وزن المصدر كالزميل والدبيب والصليل، فيستوي فيه الفرد والثنية والجمع.

الثالث: أن فعيلا يستوي فيه الواحد والاثنان والجمع بدليل قوله تعالى: ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ [ق: ١٧].

فإن قيل: قوله تعالى بعد ذلك تعظيم للملائكة ومظاهرتهم، وقد تقدمت نصرة الله تعالى وجبريل وصالح المؤمنين، ونصرة الله سبحانه أعظم؟

قلنا: مظاهرة الملائكة من جملة نصرة الله تعالى، فكأنه فضل نصرته بهم على سائر وجوه نصرته لفضلهم وشرفهم، ولا شكَّ أن نصرته بجميع الملائكة أعظم من نصرته بجبريل وحده أو بصالح المؤمنين.

وفي قوله تعالى: ﴿عَسَى رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾ [التحريم: ٥].

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿عَسَى رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾ إلى آخر الآية، فأثبت الخيرية لهن باتصافهن بهذه الصفات، وإنما تثبت لهن الخيرية بهذه الصفات لو لم تكن تلك الصفات ثابتة في نساء النبي ﷺ وهي ثابتة فيهن؟

قلنا: المراد به خيرًا منكن في حفظ قلبه ومتابعة رضاه، مع اتصافهن بهذه الصفات المشتركة بينكن وبينهن.

فإن قيل: كيف أخليت الصفات كلها عن «الواو»، وأثبتت بين الثيبات والأبكار؟

قلنا: لأنهما صفتان متضادتان لا تجتمعان فيهن اجتماع سائر الصفات، فلم يكن بد من الواو، ومَن جعلها واو الثمانية فقدمها؛ لأن واو الثمانية لا يفسد الكلام بحذفها بخلاف هذه.

فإن قيل: هذه الصفات إنما ذكرت في معرض المدح، وأي مدح في كونهن ثيبات؟

قلنا: التثبيت مدح من وجه، فإن الثيب أقبل للميل بالنقل وأكثر تجربةً وعقلاً، والبكارة مدح من وجه؛ فإنها أطهر وأطيب وأكثر مراغبة وملاعبة.

وفي قوله تعالى: ﴿**لاَّ يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ**﴾ [التحريم: ٦].

فإن قيل: ما فائدة قوله تعالى: ﴿**وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ**﴾ بعد قوله سبحانه: ﴿**لاَّ يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ**﴾؟

الثاني: الأمر بتعذيب أهل النار، وقيل: هو تأكيد.

وفي قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا**﴾ [التحريم: ٨].

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿**تَوْبَةً نَّصُوحًا**﴾، ولم يقل توبة نصوحة؟

قلنا: لأن فعولا من أوزان المبالغة الذي يستوي في لفظه الذكور والإناث؛ كقولهم: امرأة صبور وشكور ونحوهما.

وفي قوله تعالى: ﴿**كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ**﴾ [التحريم: ١٠].

فإن قيل: ما فائدة قوله تعالى: ﴿**مِنْ عِبَادِنَا**﴾ بعد قوله تعالى: ﴿**كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ**﴾؟

قلنا: فائدته مدحهما والثناء عليهما بإضافتهما إليه إضافة التشريف والتخصيص كما في قوله تعالى: ﴿**وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ**﴾، وقوله تعالى: ﴿**فَادْخُلِي فِي عِبَادِي**﴾، وهو مبالغة في المعنى المقصود، وهو أن الإنسان لا ينفعه إلا الإصلاح نفسه لا صلاح غيره، وإن كان ذلك الغير في أعلى مراتب الصلاح والقرب من الله تعالى.

وفي قوله تعالى: ﴿**وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ**﴾ [التحريم: ١٢].

فإن قيل: وكيف قال تعالى: ﴿**وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ**﴾، ولم يقل سبحانه: من القانتات؟

قلنا: معناه كانت من القوم القانتين: أي المطيعين لله تعالى، يعني رهطها وأهلها،

فكأنه تعالى قال: وكانت من بنات الصالحين. وقيل: إن الله تعالى لما تقبلها في النذر وأعطاها مرتبة الذكور الذين كان لا يصلح النذر إلا بهم، عاملها معاملة الذكور في بعض الخطاب إشارة إلى ذلك، وقال تعالى: ﴿وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾ أو رعاية للفواصل.

سورة الملك

في قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾ [الملك: ٢].

فإن قيل: ما فائدة تقديم الموت على الحياة في قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾؟

قلنا: إنما قدَّم سبحانه الموت؛ لأنه هو المخلوق أولاً، قال ابن عباس -رضي الله عنهما: أراد به خلق الموت في الدنيا والحياة في الآخرة، ولو سلم أن المراد به الحياة الدنيا فالموت سابق عليها؛ لقوله تعالى: ﴿وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾.

وفي قوله تعالى: ﴿مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ﴾ [الملك: ٣].

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ﴾ مع أن في خلقه سبحانه تفاوتًا عظيمًا، فإن الأضداد كلها من خلقه ﷻ وهي متفاوتة، والسموات أيضًا متفاوتة في الصغر والكبر والارتفاع والانخفاض وغير ذلك؟

قلنا: المراد بالتفاوت هنا الخلل والعيب والنقصان في مخلوقه تعالى الذي هو السموات، ويؤيده قوله تعالى: ﴿فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ﴾ أي: من شقوق وصدوع في السماء.

وفي قوله تعالى: ﴿أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ﴾ [الملك: ١٦].

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ﴾، والله ﷻ ليس في السماء ولا في غير السماء، بل هو سبحانه منزه عن كل مكان؟

قلنا: من ملكوته في السماء؛ لأنها مسكن ملائكته ومحل عرشه وكرسيه واللوح